إعادة بناء العلاقة بين المدرسة والمجتمع في فلسفة جون ديوي

د. علي موسى الحسن*

الملخص

يرمي البحث إلى تبيان العلاقة الجدلية بين المدرسة والمجتمع وشرائط وطرائق تحقق هذه العلاقة، والمفهوم الجديد للمدرسة عند ديوي يشكل قطيعة إبستمولوجية مع المفهوم التقليدي للمدرسة الذي انحدر إلينا من الفكر التربوي الكلاسيكي، فالتلف أو الضياع في التربية إنما هو نتيجة لعدم قدرة الطفل على الانتفاع بما تعلمه في المدرسة، وهذا مما أفضى إلى عزلة المدرسة عن الحياة، ومن هنا فإن السؤال الرئيس هو: كيف يمكن للمدرسة أن تعيد بناء علاقتها مع الحياة والمجتمع، بحيث يستطيع الطفل أن يستثمر العلوم والخبرات التي اكتسبها في المدرسة وأن يوظفها في تفاصيل الحياة اليومية؟.

وتعد إشكالية إعادة بناء العلاقة بين المدرسة والمجتمع عند ديوي من الأطروحات المهمة في سبيل وتنمية الطفولة في ميادين الحياة المتعددة، ومن هنا فإن إعادة الاعتبار للتلميذ بوصفه محور العملية التعليمية، يعد أمراً حيوياً ومطلوباً في سياق بناء العلاقة بين المدرسة والمجتمع، ولاستخراج القيمة المضافة الكامنة عند التلميذ وإطلاقه للحياة، ويتعين مطلب ديوي في مشروعه التربوي في هدم أسوار المدرسة، وذلك لإعادة ارتباطها بالحياة الاجتماعية، فالمدرسة في حقيقة تكوينها هي مجتمع أفراد، ويجب أن تكون على ارتباط عضوي بالمجتمع وبالحياة الاجتماعية في ميادينها المتعددة.

* جامعة الفرات–كلية التربية بالحسكة

Rebuild the relationship between the school and society in philosophy of John Dewey

Summary:

The research aims to identify the dialectic relationship between school and society,strips and methods of achieving this relationship, and the new concept of school he did Dewey the caution is an epistemology with the classical concept of the school.

Alone or loos of education is the result of the tack of child ability to use in school, the central question is how the school can rebuild its relationship with life and society?The important Dewey question is how the scholl in linked to life, and how the child can investigate the experiences gained from school and life??

المقدمة:

شغلت التربية اهتمام الفلاسفة والمفكرين منذ القديم، فقد نهض سقراط بدور المعلم محاوراً شباب أثينا بوصفه مربياً ومعلماً، واجترح أفلاطون نظاماً تربوياً صارماً يعنى بالروح والبدن في جمهوريته بغية المحافظة على كيان المجتمع وتماسكه، وفي العصر الحديث يستوقفنا جون لوك الذي أرسى مقولة فصل التربية عن الكنيسة وتوقف عند قضايا تربوية مهمة في كتابه(آراء في التربية)، وأما جان جاك روسو فقد احتل مركز الريادة في ميدان التربية وفلسفتها، ففي كتابه العمدة(إميل :أو في التربية)الذي لقب بإنجيل التربية، عرض روسو جملة من القضايا والأفكار على غاية من الأهمية، ولاسيما ما بات يعرف اليوم بالتربية المدنية حيث أرسى الدعائم الأولى لهذا المفهوم، وفي السياق ذاته جاءت فلسفة جون ديوي التربوية، فالعودة إلى جون ديوي لها ما يبررها ، ولاسيما عندما يكون الهدف هو الكشف عن أطاريح ديوي في فلسفة التربية، والتي نزعم أنها لم تنفد بعد، وأنها طروحات مطلوبة ومهمة في سياق بحث مشكلات التربية في عالمنا العربي، وبتحديد أدق، فإن طروحات ديوي تعد طروحات متقدمة، عندما نتحدث عن بنى المجتمع ومؤسساته المختلفة، وهي بغالبيتها بنى ومؤسسات كلاسيكية في العالم العربي، ولئن اكتست ثوب الحداثة في شكلها وسلوكاتها.

وفي بحثنا هذا سنحاول الوقوف على إشكالية النسب البراغماتي لجون ديوي الفيلسوف، وبأي معنى هو فيلسوف براغماتي، وماهي البراغماتية التي عمل تجذيرها؟؟ وسنحاول الوقوف على واقعة تحوله من الفلسفة الصرفة إلى التربية بوصفها علماً تطبيقياً يشتق أهدافه من حياة الناس المعيشة، حيث عمل ديوي على معاينة طبيعة العلاقة بين المدرسة والمجتمع، وهو الموضوع الذي عكف عليه جون ديوي لسنوات عديدة، وأفرد له غير عمل من أعماله، وهو ما سوف نحاول الوقوف عليه وإظهاره ومناقشته في بحثنا.

في موضوع البراغماتية الأداتية عند ديوي:

يعد ديوي* أحد أقطاب البراغماتية إلى جانب كل من: تشارلز بيرس، ووليم جيمس. كان جون ديوي في البداية مثالياً وانتهى به المطاف إلى البراغماتية، لكنه لم يستطع الإفلات من شبح هيجل الذي ظل يرخي بظلاله عليه، ولعله من الصحيح القول: إن أثر فلسفة هيجل على ديوي ظل ماثلاً حتى بعد تموضع الأخير في خانة الفلسفة البراغماتية، وقد شاعت فلسفة ديوي البراغماتية باسم الفلسفة الأداتية، وهو منهج اجترحه ديوي وتميّز به عن قطبي البراغماتية الأخرين، أي بيرس وجيمس، فقد ذهب ديوي إلى أن التفكير ما هو إلا وسيلة لسيطرة الإنسان على الطبيعة سيطرة جماعية، لا فردية، ولعل ويلم جيمس – بحسب ديوي – كان يفكر بفرانسيس بيكون عندما وصف البراغماتية بأنها اسم جديد لطريقة قديمة من طرق التفكير، ويستدرك ديوي قائلاً: "ولكن بيكون، من حيث روح المعرفة ومن حيث جوهرها يصح أن يعد أول من تنبأ بفكرة النظر إلى المعرفة نظرة براغماتية[1] ولا يخفى علينا أثر الفلسفة التجريبية الإنكليزية على الفلسفة البراغماتية، ولاسيما على جون ديوي الذي كان معجباً أيما إعجاب بفلسفة بيكون، فالأخير يمثل روح الفلسفة الحديثة عند ديوي، ويعد المؤسس الحق لاتجاه الفكر الحديث، فهو الذي بشر بالروح الحديثة التي تستنهض العقل، وخير ما يؤثر عنه–

* جون ديوي Gohn Dewey(1859–1952) فيلسوف أميركي تحصل على تعليمه الابتدائي والثانوي في مدرسة برلنجتون Berlengton التي تقع في ولاية فرمونت Verment شمال الولايات المتحدة الأميركية ، وكان لا ينفك عن شراء الكتب والاطلاع عليها، وكان يؤمن ثمن الكتب من عمله في بيع صحيفة المساء التي كانت تصدر في برلنجتون ، ومن عمله في بيع الأخشاب ، وانتسب ديوي إلى جامعة فرمونت ودرس اللغات اليونانية واللاتينية والتاريخ القديم والهندسة التحليلية وغيرها العديد من العلوم المختلفة، وبعد تحصله على درجة الدكتوراه عن أطروحته الموسومة ب(علم النفس عند كانط عام 1844م) تم تعيينه مدرساً للفلسفة في جامعة ميتشغان ، وذلك بدعم من أستاذه جورج موريس ، وكان ديوي غزير الانتاج متعدد الاهتمامات ، ومن أهم أعماله : (عقيدتي التربوية1897) و (المدرسة والمجتمع1900) و (الديموقراطية والتربية1916) و (تجديد في الفلسفة1920)، للمزيد انظر: أحمد فؤاد الأهواني، نوابغ الفكر الغربي: جون ديوي، دار المعارف، القاهرة ، ط3، 1978، ص15 ومابعدها.

[1]– ديوي، جون ، تجديد في الفلسفة ، ترجمة: أمين مرسي قنديل، مكتبة الأنكلو المصرية ، القاهرة ، د.ت. ص 105

بحسب ديوي– عبارته ذائعة الصيت " إن المعرفة قوة " وبذلك فإن بيكون قد نعى جملة المعارف الكثيرة التي كانت سائدة في عصره، ذلك أنها ليست من المعرفة في شيء، فهي معرفة زائفة، لا تمنحنا القوة، بخلاف المعرفة الحقة التي من شأنها أن تمدنا بالقوة[2] .وبالعودة إلى أقطاب البراغماتية، وعلى سبيل إيضاح و تأصيل مفهوم البراغماتية، والوقوف على المعنى الخاص الذي خلعه ديوي على البراغماتية، فإنه يجب التأكيد مرة أخرى على أن فرسان البراغماتية هم: بيرس، وجيمس، وديوي، لكن هناك من ذهب إلى أن جورج هيربارت ميد (1863- 1931) يعد من مؤسسي البراغماتية، وأن الأخيرة فلسفة تعبر عن المناخ الثقافي الجديد في أمريكا آنذاك، فهي فلسفة جديدة لا يزيد عمرها عن قرن من الزمان، وهي ثمرة التفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوربيون الفارين إلى أمريكا ، بسبب الاضطهاد الديني و السياسي الذي تعرضوا له في بلدانهم على أغلب الظن، وكان على هؤلاء المهاجرين الذين وجدوا أنفسهم بأرض بكر شاسعة، أن يخبروا نمطاً جديداً من الحياة، وكان لابد أن يكافحوا وأن يعملوا على تنمية نشاطهم، وأن ينظموا سلوكياتهم ومؤسساتهم، وبهذه الروحية بدأ العمل وذاع صيت البراغماتية، وفيما يتعلق بمسألة النسب، فإن البراغماتية تنتسب إلى شارل بيرس (1839- 1914) الذي أظهر براعة في الرياضيات، ويعد من أهم المؤسسين لعلم المنطق الرياضي، وفي عرضه للمذهب البراغماتي، ذهب بيرس إلى أن البراغماتية ليست فكرة أمريكية كما يرى البعض، فمصطلح براغماتيك Pragmatic يعود إلى كانط حيث أظهر في كتابه(ميتافيزيقا الأخلاق) الفرق بين معنى البراغماتيك، وبين معنى العمل practical، فمصطلح العملي عند كانط يطابق مفهوم القوانين الأخلاقية التي هي قوانين قبلية، أما مصطلح البراغماتيك، فإنه يعني قواعد الفن والصنعة التي تعتمد التجربة وتقبل بها[3]وعلى طريق إيضاح معنى البراغماتية كما

[2] – المصدر نفسه ، ص ص 85 –86

1– الأهواني ، أحمد فؤاد،نوابغ الفكر الغربي :جون ديوي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3، 1978، ص 84

تحدرت إلينا من المؤسس الأول بيرس، ذهب ديوي إلى أن ثمة اتهامان ينسبان خطأً إلى بيرس، الأول هو أنه شاع عن البراغماتية أنها تجعل من العمل غاية للحياة، والخطأ الثاني، هو القول بأن البراغماتية تخضع الفكر والنشاط العقلي لغايات ومصالح، وبمعنى أن البراغماتية ترتبط بالمنفعة، والحق عند ديوي أن دور العمل هو دور متوسط، وليس غاية كما هو شائع، ذلك أن نظرية بيرس تفترض في أساسها علاقة معينة بالعمل والسلوك الإنساني، فالبراغماتية أبعد ما تكون عن تمجيد العمل لذاته، وهي على الضد من أي تحديد يختزلها بهذا المعنى، وهي على الضد من كل التصورات التي تربطها بأداء غرض خاص أو منفعة شخصية، كما أنها على الضد من فكرة إخضاع الفكر لخدمة أي منفعة مادية، أو مصلحة محددة[4]

أما فيما يتعلق بالبراغماتية عند وليم جيمس، فإن ديوي ذهب إلى أنها تشكل امتداداً للبراغماتية عند بيرس، لكن جيمس ضيق المنهج البراغماتي من جانب، ووسعه من جانب آخر، ضيقه من جهة تحديد المبدأ العام للبراغماتية، ووسعه بالقول بإمكانية تطبيقه على النتائج الخاصة في المستقبل، ذلك أن جيمس كان ينظر إلى التصورات والنظريات، والفكر عموماً على أنه أداة من شأنها أن تسهم في بناء الحقائق في المستقبل، ومن هنا كانت انطلاقة ديوي بالقول بالأداتية Instrumentalism التي تعد محاولة لوضع نظرية منطقية دقيقة عن التصورات والأحكام والاستدلالات في صورها المختلفة، وذلك لمعرفة كيف يعمل التفكير في تحديد النتائج في المستقبل تحديداً تجريبياً[5(1)].

2- المرجع نفسه ، ص ص85-86

[1]- الأهواني، أحمد فؤاد، مرجع سبق ذكره، ص 86، ص 91- الأهواني ، أحمد فؤاد،مرجع سبق ذكره، ص ص100-101

4- عبد الراضي ابراهيم ومحمد عبد الرحمن ، دراسات في فلسفة التربية المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة،ط1، 2002، ص105

ويمكننا القول إن البراغماتية بالمفهوم العام لا تعني أنها علوم أو معارف أو نتائج تامة نهائية، وإنما هي موقف موجه في الحياة، فالبراغماتية تفسر تنوع تجاربنا واختلافها وتعددها، وتمكننا من أن نحتفظ بتراثنا الفردي وطاقتنا وإمكانياتنا التي تحصلنا عليها من تجاربنا المختلفة في الحياة [2]6، ولكن عندما يكون الحديث عن البراغماتية عند ديوي، فإننا نجد أن أرومة المنهج البراغماتي الأداتي Instrumental تنتسب إلى مذهب أرسطو، حيث المنطق أداة للتفكير، فالقول أن التفكير أداة لبلوغ الحقيقة، والقول أن هذه الأداة هي من طبيعة الموضوع الذي تطبق عليه، إنما هو قول أرسطي لا جدال فيه، ولكن تقدم العلوم وتطورها، واستخدام المنهج التجريبي على نطاق واسع، استلزم (أورجانوناً) جديداً، وبمعنى استلزم أداة مختلفة عن (أورجاون) أرسطو، وأغلب الظن أن تسمية ديوي لمنهجه البراغماتي بالأداتية، إنما يعود إلى تأثره بفرانسيس بيكون، وقد أظهرنا فيما سبق إعجاب ديوي بفرانسيس بيكون وبموقعه الفكري المتميز في العصر الحديث، ولئن كان بيكون قد أرسى دعائم المنهج التجريبي، وهو المنهج الذي استندت إليه علوم الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة في تقدمها وتطورها، فإن ديوي قد أرسى دعائم منهج تجريبي، قد يكون بالإمكان تطبيقه على العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية[7]، وطموح ديوي أن تصبح الفلسفة أداة فعالة لتفسير الأحداث، وأن تحث الناس على التفكير لحل المشكلات التي تعترضهم، وأن تتعين الفلسفة عملياً في حياة الناس الاجتماعية بما يحقق تطلعات المجتمع التي يكتنفها الواقع الذي لا يكف عن التغيّر[8]، فالفلسفة عند ديوي هي عملية بناء مستمرة للتجربة البشرية، وقيمة الأفكار التي تطرحها الفلسفة تتوقف على ما تؤدي إليه من نتائج في إطار الخبرة العملية .[9]

2–الشنيطي، محمد فتحي، المعرفة، دار الثقافة، القاهرة، ط5، 1981، ص ص212–213

3– الأهواني ، أحمد فؤاد،مرجع سبق ذكره، ص ص100–101

4– عبد الراضي ابراهيم ومحمد عبد الرحمن ، دراسات في فلسفة التربية المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة،ط1، 2002، ص105

5–زكريا ، ابراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، مكتبة مصر، القاهرة، 1968، ص ص 64–65

ويمكن القول إن البراغماتية الأداتية عند ديوي تعني أن الفكر وما ينطوي عليه من ميكانيزمات هو ألة أو أداة يتوسلها الأفراد لحل المشكلات التي تطرحها الحياة في ميادينها المتعددة من اجتماع وتعليم تربية وثقافة واقتصاد وسياسة وسواها من ميادين الحياة .

- **المدرسة والمجتمع:**

لعل المدخل الصحيح إلى فلسفة التربية عند ديوي، هو كتابه (عقيدتي التربوية)، ذلك أن الكتاب ينطوي على الأفكار الرئيسة لفكره التربوي، واللافت للنظر هو عنوان الكتاب (عقيدتي التربوية)، فالتربية عند ديوي هي عقيدة ومبدأ، التربية عنده نظر وعمل، وبمعنى أن التربية في منظور ديوي تعني تلازم القول والعمل، وقد تجلت هذه العقيدة عملياً في مدرسته التي حملت اسم المدرسة المعملية *Laboratory School، والقارئ لحياة ديوي يجد أن فلسفته هي ترجمة عملية لتجاربه في الحياة، بقدر ماهي نتاج لمراجعاته ونقده للفكر الفلسفي السائد آنذاك، ولنقده لعلاقة الوعي بالعالم، ولنتاج التطور العلمي المضطرد من عصر البخار، إلى عصر الكهرباء والذرة، وهكذا تجلى تطور فكر ديوي بفلسفة جديدة للحياة، ومن ثم انتقل إلى فلسفة في الخبرة، وإلى أن انتهى بفلسفة القيم في نهاية المطاف(10)

- عمل ديوي على إنشاء مدرسة تعنى بالأطفال وتقوم على أسس جديدة من شأنها أن تنهض بواقع التربية والتعليم، وقد بادر إلى مساعدته في ذلك جماعة من الآباء المتنورين الذين أرادوا لأبنائهم تعليما ناجعا ، فأمدوه بالمال اللازم والمساندة الأخلاقية وكل ما من شأنه أن يسهم في بناء المرسة الجديدة ، وإيمانا منه بأهمية هذه المدرسة ومايمكن أن تنهض به من دور في تنمية التربية والتعليم ، كان يحاضر فيها ويعطي دروسا في علوم التربية وعلم النفس ، وكان يتبرع بأجرهِ الذي يحصل عليه لقاء هذه المحاضرات والدروس ، وذلك لدعم المدرسة بما تحتاجه من مستلزمات ووسائل وأدوات ، ومجموع المحاضرات التي ألقاها ديوي في المدرسة ، هي ما انطوى عليه الكتاب الذي حمل عنوان (المدرسة والمجتمع)، وهو الكتاب الذي طبع مرات متعددة ، وترجم إلى غير لغة. للمزيد انظر : أحمد فؤاد الأهواني، مرجع سبق ذكره، ص26

1- الأهواني ، أحمد فؤاد، مرجع سبق ذكره، ص 75

إن مسعى ديوي في التربية يتمثل في إعادة بناء العلاقة بين المدرسة المجتمع، وبمعنى أن ديوي يهدف إلى أن تكون العلاقة بين المدرسة والمجتمع علاقة عضوية، وليس من ينكر اليوم أن المدارس في ثوبها التقليدي، مجرد وسيط ينقل المعلومات الجاهزة إلى أذهان التلاميذ، وتعليمهم بعض المبادئ البسيطة، مثل القراءة والكتابة والحساب، وأن الطرائق المتبعة في كل ذلك ليس بوسعها تنمية المهارات في البحث والتنقيب عن المعلومات الكامنة في جملة المعطيات المعرفية والعلمية، ووضعها موضع الاختبار والتجربة للوقوف على مدى صدقها من عدمه، ذلك أن الطرائق التقليدية لا تنمي الفضول المعرفي الفطري عند التلاميذ، كما أنها تخمد نزوع التلاميذ للملاحظة، بما تحمله هذه الطرائق من ركام المعلومات المفككة في المترابطة، وعند ديوي، فإن مشكلة المدارس العامة في البلاد الديموقراطية التي يتاح فيها لجميع الأطفال في سن التعليم، أن يلتحقوا بالمدارس، هي مشكلة كبيرة لجهة المواد التي تدرس، ولجهة الطرائق السائدة في التدريس[11]، ولكن ما الذي يهدف إليه ديوي في مسألة التربية والتعليم؟

كتب ديوي في مؤلفه (عقيدتي التربوية) قائلاً: " إني أظن أن الطفل الذي نريد تربيته فرد اجتماعي، وإن المجتمع وحدة عضوية مؤلفة من أفراد، وإذا نحن أغفلنا العامل الاجتماعي من حساب الطفل بقينا أمام شيء مجرد، وإذا أسقطنا العامل الفردي من المجتمع، لم يبق إلا جمهور بغير حركة أو حياة، من أجل ذلك لا بد للتربية أن تبدأ بالنظر في قوى الطفل واهتماماته وعاداته، ولا بد أن تضبط بالرجوع إلى هذه الاعتبارات، ولا بد أن تفسر على الدوام هذه القوى والاهتمامات و العادات بمعرفة ما تدل عليه، ولا بد من ترجمتها إلى مكافآتها الاجتماعية؛ أي إلى اللغة التي تستطيع القيام بخدمة اجتماعية " [12]، وبعد فإنه يمكن النظر في قول ديوي بوصفه (ما نفيست

2-ديوي، جون ، الحرية والثقافة ، مطبعة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط1، 1955، ص ص 218-219

1- الأهواني ، أحمد فؤاد، مرجع سبق ذكره، ص 156

*Manifest) في علم التربية، التربية كما يرنو إليها ديوي، وبمعنى التربية العملية التي من شأنها أن تصرف في ميادين الحياة وارتداداتها الممكنة على حياة الأفراد. ولمًا كانت المجتمعات الإنسانية على مر الأزمنة تواجه مشكلات متعددة، مشكلات تتعلق بميادين الحياة المختلفة، تتعلق بالاقتصاد والسياسة والتربية والثقافة والبيئة والتنمية بوجه عام، فإن العمل على معالجة هذه المشكلات يغدو أمراً حيوياً لازماً وضرورياً للمضي نحو تنمية مستدامة وحياة آمنة لبني البشر، وهنا يوجه ديوي سهام نقده للفلاسفة الذين لم يلقوا بالاً لمشكلات الحياة وآفاتها الاجتماعية، حيث أصبح هؤلاء الفلاسفة طبقة اختصاصية تستعمل لغة فنية متعالية ومغايرة للغة الناس العاديين المثقلين بمشكلات الحياة المتجددة [13]، ومن هنا كانت نقطة انطلاق مشروع ديوي في التربية، وبمعنى أن مشروع ديوي هو الناس في أحوالهم ومشكلاتهم اليومية، البشر في كفاحهم اليومي من أجل حياة ذات معنى، وبتحديد أدق، فإن مشروع ديوي في التربية هو الطفل والمشكلات التي تكتنفه وظروف تحوله ونموه، ومن ثمّ كيف يمكن أن نمكن الطفل من أن يتعامل مع المشكلات التي تطرحها عليه الحياة في تغيرها المضطرد ؟.

ذهب ديوي إلى أن " الحياة كلها أخلاقية بقدر ما تكون تربوية"[14]

فالأخلاق والتربية عند ديوي تعني شيئاً واحداً، مادامت الأخلاق لا تعدو أنها انتقال الخبرة باستمرار من أمر سيء إلى آخر أفضل منه، وبالعودة إلى مفهوم التربية الكلاسيكي فإن التربية تعني عملية إعداد للأفراد، عملية تعلم فحسب، أي تحصيل ما هو مفيد للفرد بحيث يمكنه من صرفه في ضروب الحياة المختلفة، وبهذا فإن التربية

* مانفيست تعريب لكلمة Manifestالانجليزية، بمعنى أظهر،أوضح، بيّن، ومفرد الاسم منها بيان ، قائمة، الخ للمزيد انظر :الرابط:WWW.almaany.com

2- ديوي، جون ، الديموقراطية والتربية ، ترجمة : منى عفراوي وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والنشر، القاهرة،1964،ص 339

3- ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، مصدر سبق ذكره، ص299

هي تمهيد واستعداد لشيء مهم و أفضل سوف يحدث فيما بعد، وبحسب هذا الفهم الكلاسيكي للتربية فإن مرحلة الطفولة لا تعدو كونها مرحلة لإعداد الطفل وانتقاله إلى مرحلة الكبار الناضجين، وكذلك فإن الأخيرة ما هي إلا مرحلة إعداد وانتقال إلى مرحلة تالية، فالمستقبل لا الحاضر – بحسب ديوي– هو الغاية في التربية الكلاسيكية[15]، وهكذا فإن التربية تعني تحصيل للمعرفة واكتساب للمهارات من أجل استعمالها في المستقبل لا الحاضر، والتربية عند الكلاسيكيين تعني أيضاً تكوين العادات التي تتطلبها الحياة وتوظيفها فيما بعد في مختلف الأعمال كما تعني إعداداً لمفهوم المواطن الصالح وكيفية قيامه بواجباته وتمكينه من الإسهام في الدراسات العلمية إلى غير ذلك من أعمال أخرى، والتعليم والتدريب والتربية الأخلاقية هي عمليات يقوم بها الكبار والشباب الناضجون لينهضوا تدريجياً بأولئك الأفراد(الأطفال) الذين لاحول ولا قوة لهم ، إلى أن يصلوا بهم إلى مرحلة يتمكنوا عندها من القيام بأعمالهم بوصفهم أفراداً مستقلين غير معتمدين الآخرين، وبهذا يتمثل إسهام التربية بتحرير الأفراد (الأطفال) من الاتكال الاجتماعي[16]، وبحسب ديوي فإن هذا التقابل الذي يفترض الناس وجوده عادة بين التربية من حيث الأخيرة تمثل مرحلة الاعتمادِ الاجتماعيّ الكبارَ، وبين مرحلة النضج من حيث الأخيرة تمثل مرحلة الاستقلال الاجتماعي للأفراد بوصفهم أفراداً ناضجين، فإن هذا التقابل يشكل خلطاً في الرؤية إلى موضوع التربية ووظائفها، ذلك أننا – حسب ديوي– كثيراً ما نكرر ونعيد القول إن الانسان حيوان اجتماعي، وهذا عند ديوي قول سياسي يطمس المعنى التربوي والأبعاد الاجتماعية للتربية[17]، وعندئذ فإن السؤال هو: هل يبدأ الاصلاح الأخلاقي بالفرد أم بالمؤسسات الاجتماعية؟ وفي معرض الإجابة عن هذا السؤال ذهب ديوي إلى أن" التغيرات الباطنية الأخلاقية وحدها هي

4- ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، مصدر سبق ذكره، ص300

1- المصدر نفسه ، ص 302

2- المصدر نفسه، ص 302

الأمر الحاسم والمهم في كل إصلاح عام"[18]ولكن هذه إجابة زائفة، ذلك أننا عندما نقول إن الاصلاح يبدأ بالفرد فإننا نفترض أن النفس الشرية مكتملة، وبذلك نلقي عبء الاصلاح الاجتماعي على حرية الإرادة، وهذا مما يجافي الحقيقة والواقع، فالفرد يحيا وسط شروط اقتصادية واجتماعية وثقافية متعددة، فإذا ما انشغل الأفراد في تركيز جهودهم في التأمل بعوالمهم الداخلية وما تنطوي عليه من فضائل ورذائل، تأملاً باطنياً، فإنهم بذلك يهملون البيئة التي تكتنفهم بما تنطوي عليه هذه البيئة من شروط اقتصادية واجتماعية وثقافية ومفاعيل أخرى كثيرة من شأنها أن تفعل فيهم وتعيد إنتاجهم على غفلة منهم، بحيث تأخذهم إلى مسارات قد لا يرغبون بها، أو قد لا تخدمهم في ظروف عيشهم اليومي، وهكذا فبينما كان القديسون – بحسب تعبير ديوي– منشغلين بالتأمل فيما يجري في نفوسهم، كان الخاطئون المستهترون يتولون تدبير العالم[19]، ولكن إذا ما نظرنا إلى مسألة (الذات)، أي الذات الفردية الحرة، بوصفها عملية نشطة تتحقق في مسارات الكفاح اليومي للأفراد ، أدركنا أن الإصلاحات الاجتماعية هي الوسيلة الوحيدة لخلق شخصيات متجددة وفاعلة في الحياة، وهكذا يصبح الإصلاح الأخلاقي للأفراد، والاهتمام الاجتماعي بإصلاح الأوضاع الاقتصادية والسياسية أمراً واحداً، وعندئذ يتخذ البحث في مضمونات التنظيمات الاجتماعية ، ومنها مضمون العلاقة بين المدرسة والمجتمع، معنىً واتجاهاً محدداً[20].

لقد حاول ديوي الكشف عن الأسس الأنثروبولوجية الثقافية والاجتماعية للتربية، حيث أظهر أن التربية مسطرة أخلاقية تتيح النمو والتطور للأفراد، فالفرد الديوي فرد ملتزم، كما يمكن القول إن التربية عند ديوي لا يوجهها نموذج أنثربولوجي ثابت، على نحو مسّبق، باعتماد تصور معياري للطبيعة الإنسانية، ولهذا فإن التربية لا تقتصر على

3- المصدر نفسه، ص 316

4- المصدر نفسه ، ص 317

5- ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، مصدر سبق ذكره، ص317

مرحلة مدرسية محددة، وإنما تمتد مادامت الحياة، فهي في "قلب التنشئة الاجتماعية"[21]، فعندما ينخرط الفرد في مسار تنموي، طوال حياته، فلن تكون التربية اعداداً لمرحلة تالية، ذلك أن التربية هي أن يتمكن الفرد من تحصيل معارف واكتساب مهارات من واقعه المعيش الذي يكتنفه، تسهم في تنميته وتطوره، والحال فإن التربية تغدو وظيفة ثابتة، لا تتحدد بمرحلة أو مدة زمنية، فالتمكن من كفاية، أو تحصيل معرفة، أو حمولة ثقافية ليس غاية في ذاته، ولكنه يعد علامة على نمو الأفراد وعلى استدامة تنميتهم، وهكذا نجد أن ديوي يعوض مفهوم الإرث التربوي، وهو مفهوم مركزي في التربية الكلاسيكية، بمفهوم الاستعمال الذي يعني العمل على تنمية وتمثل النظام الديموقراطي المنشغل بالحاضر، والذي يقطع مع كل ما قد سلف[22].

- مفهوم المدرسة في فكر ديوي:

يستوقفنا العنوان الذي خطه جون ديوي وضمّنه في عمله الرئيس عن المدرسة(المدرسة والمجتمع)، العنوان المفتاحي: (المدرسة والتقدم الاجتماعي) والذي يمكن النظر إليه بوصفه الأطروحة المركزية في فلسفة التربية عند جوي، حيث كتب ديوي قائلاً:" إننا ميالون إلى النظر إلى المدرسة من وجهة نظر فردية، بوصفها شيئاً بين المعلم والطالب، أو بين المعلم والوالدين، لأن أكثر ما يثير اهتمامنا هو –بالطبع– التقدم الذي يحرزه الطفل من معارفنا في نموه الجسدي الاعتيادي، وتقدمه في القدرة على القراءة والكتابة والحساب، ومعلوماته في الجغرافية والتاريخ، وتحسن طباعه وعاداته في التهيؤ والاستعداد للأشياء، وفي النظام والمواظبة، فبمثل هذه المقاييس نقيس عمل المدرسة، وإننا على حق في هذا، ومع ذلك فإن مدى نظرتنا هذه بحاجة إلى توسع، لأن ما يريده

1- عثماني ، الميلود، التربية والديموقراطية، المدرسة المغربية، الرباط، عدد8/7، 2017، ص 170

2- المرجع نفسه، ص 170

أفضل والد لطفله، يجب أن يستهدفه المجتمع لكل أطفاله، وأي نموذج آخر لمدارسنا غير هذا يكون ناقصاً، وغير مقبول، ولو أنه طبق لحطم ديموقراطيتنا"[23].

ما تقدم من قول يدل بوضوح على مفهوم الإصلاح الذي يرومه ديوي في ميدان التربية والتعليم، حيث يمكن القول بأن ميكانيزم الإصلاح هو ميكانيزم اجتماعي، ذلك أن التغير في فلسفة التربية ومضموناتها هي نتاج الحالة الاجتماعية المتغيرة، وهي – بحسب ديوي– محاولة لسد حاجات المجتمع الجديد الآخذ بالتكون، ولهذا فإن التغيرات التي تحدث في فلسفة التربية وطرائقها ومناهجها، مشابهة في نمطها للتغيرات التي تحدث في ميادين الصناعة والتجارة[24]وغيرها، فالمدرسة عند ديوي هي مؤسسة اجتماعية ترتبط عضوياً بحياة الناس اليومية، وعندما كان ديوي مديراً للمدرسة الابتدائية الملحقة بجامعة شيكاغو، فإنه عاين ما يمكن تسميته اليوم الاتجاه إلى تعلم الاقتصاد المنزلي، فقد ذهب ديوي إلى أن هذا النمط من التعليم ، أي التعليم المهني التطبيقي والفنون المنزلية كالخياطة والطبخ، يحظى بقبول كبير عند التلاميذ، فهذا النمط من التعليم يمنحهم شيئاً ما لم يكن بالإمكان الحصول عليه بطريقة أخرى – برأي ديوي – ولكن الوعي بأهميته ما يزال ضعيفاً، والعمل بهذا النمط من التعليم ما يزال دون المستوى المطلوب، ذلك أنه لا يلبي رغبات وميول التلاميذ بالقدر الكافي[25]، فالتربية عند ديوي هي عملية تنمية النزعات الأساسية، الفكرية منها والعاطفية في الإنسان تجاه الطبيعة وأخيه الإنسان، وبهذا يمكن القول إن الفلسفة هي النظرية العامة للتربية[26]، وفي مفردات التربية ، أي: المادة الدراسية وطرائق التدريس، فإن ديوي أظهر ترسيمة علائقية بالنظر إلى حياة الطفل ونموه الاجتماعي، وكيف يمكن أن نعيد بناء العلاقة بين المدرسة والمجتمع، وذلك بحسب أطروحة مهمة من أطروحاته التربوية، وهي هدم أسوار

3–ديوي، جون، المدرسة والمجتمع،ترجمة: أحمد حسن الرحيم ومحمد ناصر، دار الحياة، بيروت،ط2، 1978، ص31

4– ديوي، جون، المدرسة والمجتمع، مصدر سبق ذكره، ص32

1– المصدر نفسه، ص36

2– ديوي ، جون ، الديموقراطية والتربية ،مصدر سبق ذكره ، ص340

المدرسة والانفتاح على المجتمع والحياة، حيث ذهب ديوي إلى أن "حياة البيت بما فيها من بناء وأثاث وأدوات إلى غير ذلك، وبالإضافة إلى المهن المتخذة في البيوت، تقدم بحالتها هذه، مادة ذات علاقة مباشرة وواقعية بالطفل، لذا من الطبيعي أن يميل إلى إعادة صنعها بشكل تخيلي"[27]، ديوي يتحدث هنا عن مرحلة ما قبل المدرسة، وبمعنى أن ديوي يتحدث عن مرحلة رياض الأطفال و ما لهذه المرحلة من أهمية في حياة الطفل، ولا سيما فيما يتعلق بأهمية التعلم باللعب بوصفه طريقة ناجعة من طرائق التعلم المهمة في هذه المرحلة العمرية بالغة الحساسية في حياة الطفل، وعن أهمية تنمية ملكة التخيّل والمحاكاة عند الطفل، وفي هذا السياق كتب ديوي قائلاً:" وإن إعادة عمل محتويات الحياة البيتية باللعب يؤدي طبعاً إلى دراسة أوسع وأكثر جدية تتناول المهن الاجتماعية التي يعتمد عليها البيت"[28]، ولكن تحقيق الاستمرارية بين مرحلة ما قبل المدرسة، أي مرحلة رياض الأطفال، وبين المدرسة الإبتدائية يجب أن يتحقق بصورة تدريجية وغير محسوسة– بحسب ديوي– كما هو الحال في نمو الطفل، وهذا عمل مستحيل ما لم تتوافر كل المواد والمصادر التي تساير النمو الكامل لقوى الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة، والتي من شأنها أن تمكّن الطفل من القيام بالعمل الذي يرغب به [29]، لكن رغائب الطفل وميوله تحتاج إلى هادٍ وموجه، وهنا نرتد إلى مفهوم لطبيعة البشرية ونزعاتها، ولمّا كانت المهمة الرئيسة للفلسفة تتمثل في طرح الأسئلة الكبرى، فيما يتعلق بالإنسان ومشكلاته وعلاقته بالكون والوجود، إلى غير ذلك من أسئلة، فإن مهمة الفلسفة عند ديوي، هي أن تجعل من السؤال عن الإنسان سؤالها الرئيس، وبمعنى أن تجعل من السؤال عن الإنسان سؤالاً مركزياً يعيد الاعتبار للإنسان ومشكلاته في صيرورة الحياة، وهذه المشكلات عند ديوي هي مشكلات فيزيقية وليست مشكلات ميتافيزيقية، ولهذا

3- المصدر السابق ، ص124

4- ديوي، جون، المدرسة والمجتمع، ص 129

5- ديوي ، جون ، المدرسة والمجتمع ، مصدر سبق ذكره ، ص 129

كرس جل نشاطه الفكري والإنساني لإعادة الاعتبار لمفهوم الإنسان بوصفه المفهوم المركزي، فبدأ بقضايا التربية ومشكلاتها المتجذرة في المجتمع، ذلك أن " الظروف المحيطة التي تهم الجنس البشري مباشرة، هي الظروف التي شكلتها مناشط الأفراد الآخرين، وهذه الحقيقة تزداد أهميتها وتصبح أساسية إذا ما نظرنا إلى حقيقة الطفولة، حقيقة أن كل فرد إنساني يبدأ حياته وهو معتمد الآخرين كل الاعتماد ".[30]

إن المفهوم السائد في التربية، مفهوم اعتماد الآخر، هو الذي يشكل الفعالية الذاتية للأطفال، والسبب الرئيس عند ديوي يكمن في غياب الفعالية الانتاجية العامة، فالمدارس في شكلها الحالي لا تستطيع أن تنظم نفسها بوصفها وحدة اجتماعية طبيعية، وإنه لأمر محزن – عند ديوي – أن تكون المدارس على هذا النحو من فقدان الروح الاجتماعية [31]، وعليه فإن مطلب ديوي يتمثل في إعادة النظر في مفهوم المدرسة، فالمدرسة عنده، هي الحياة في حقولها المتعددة من اجتماع وعمل وفن إلى غير ذلك من مناشط الحياة المتعددة، وعندما ندرك ضرورة الارتباط العضوي بين المدرسة والمجتمع، فإن مفهومنا عن المدرسة سوف يتبدل، وحينها ندرك أن المدرسة صورة مصغرة عن المجتمع بكافة فعالياته ومناشطه، وأن النظام الديموقراطي هو النظام الذي يحقق التوازن بين المدرسة والمجتمع، مما يعني إتاحة الفرصة أمام الأفراد للإسهام في تحقيق المصالح المشتركة للمجتمع .[32]

- الطفل بين المدرسة والحياة:

1- ديوي ، جون ،الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، ترجمة : محمد لبيب النجيحي ، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر ، القاهرة ،ط1 ، 1963 ، ص 107

2- المصدر السابق ، ص ص 36-37

3- الجيوشي، فاطمة ، فلسفة التربية ، جامعة دمشق ، دمشق ، ط5 ، 1999 ، ص 120

تفحص ديوي حال المدرسة ابتداءً من البيئة المادية التي تحيط بالطفل، من بناء وأدوات وتجهيزات إلى غير ذلك مما يتعلق بالبيئة المادية في المدرسة، وفي هذا السياق كتب قائلاً: " لقد كنت قبل سنين قليلة أبحث في مخازن التجهيزات المدرسية في المدينة، محاولاً إيجاد مناضد وكراسي تلائم احتياجات الأطفال من النواحي الفنية والصحية والتربوية، فواجهنا صعوبة شديدة في الحصول على ما نريد، وأخيراً قال أحد الباعة، وكان أنبه جماعته: إني أخشى ألا تجد عندنا ما تريده، لأنك تريد أثاثاً يستطيع أن يعمل عليه الأطفال، بينما كل ما تراه عندنا مصنوع للإصغاء "[33]، هكذا أوجز ديوي حال المدرسة التقليدية، فالمدرسة في ثوبها التقليدي هي مكان لتلقي المعلومات فحسب، والطفل فيها ليس سوى وعاء يملأ بالمعلومات، الطفل خزان معلومات ليس إلا، والعديد من الوقائع الميدانية تؤيد هذا، فإذا ما نظرنا إلى البيئة الصفية نجد أن الغرف الصفية مرصوفة بالمقاعد الدراسية الكريهة، التي لا تترك إلا حيزاً محدوداً لحركة التلاميذ، ونشاهد أيضاً مقاعد متماثلة بالحجم والشكل، لا تصلح سوى لتخزين الكتب والأقلام، بالإضافة إلى منضدة وكرسي للمعلم في أحسن الأحوال، ونلاحظ أن الجدران عارية في أغلب الأحيان، فنادراً ما نشاهد صورة أو لوحة معلقة على الجدران، ولمًا كان هذا هو واقع المدرسة، فما المأمول منها ؟!.

إن المدرسة بمفهومها التقليدي تنظر إلى التلاميذ بوصفهم كتلة سلبية متلقية، فالتعليم بكافة مفرداته يتعامل مع التلاميذ بوصفهم متلقين دونما اهتمام بذواتهم الفردية، فحجرات الدراسة بمقاعدها المرصوفة، مصممة للتعامل مع الأطفال بوصفهم كتلة واحدة بصرف النظر عن ذواتهم الفردية الحرة، وبصرف النظر عن الفروق الفردية عند هذا الحشد من التلاميذ، فكل شيء في البيئة المدرسية مبني على قاعدة (الإصغاء)، بحيث يمكن القول إن حاسة السمع والكتاب هما الوسيلتان عند التلاميذ كافة، وبمعنى أن نمط التعليم التقليدي يولد أشباه من التلاميذ، فالكل متشابه، ذلك أن السمع والكتاب هما

4- ديوي ، جون ، المدرسة والمجتمع ، مصدر سبق ذكره ، ص 51

القناتان اللتان تهيمنان على الجموع البشرية من التلاميذ المتلقين في حجرات المدرسة، مما يعني إهمال ذوات التلاميذ، ومن ثمّ ضياع هذه الذوات الفردية في خضم هذه الحشود من التلاميذ، وعند ديوي، فإن هذا النمط من التعليم يشمل المراحل التعليمية كافة، من التعليم الابتدائي إلى التعليم الجامعي [34]، فالتلميذ يغدو رقماً من الأرقام في المدرسة التقليدية، وحاصل جمع التلاميذ بوصفهم أرقاماً يشكل حجرة الصف، وعلى هذا النحو نكون أمام كتلة بشرية صماء، وهكذا يتضح أن التلميذ مهمل في هذا النمط من التعليم، ففي الوقت الذي يجري فيه الحديث عن مستلزمات مادية ووسائل تعليمية ومناهج إلى غير ذلك من عناصر العملية التعليمية والتربوية، فإنه ليس هناك ما يقال عن حياة التلميذ، والتغير المطلوب – برأي ديوي – هو أن نجعل من التلميذ مركز الجاذبية في التربية والتعليم، فالمطلوب هو ثورة تحاكي ما قام به كوبرنيكوس عندما قال بمركزية الشمس، ففي التربية اليوم يجب أن يكون التلميذ هو المحور في العملية التربوية[35].

وهكذا يجب إعادة الاعتبار للتلميذ بوصفه مركز العملية التربوية، ولإنجاز هذه المهمة علينا هدم أسوار المدرسة، وبمعنى يجب أن نفتح المدرسة على الحياة، فالتعلم –عند ديوي– يكون بإعادة بناء العلاقة بين التلميذ ومحيطه الكبير، ذلك أن الطفل ينطوي على طبيعة فعالة يجب العمل عليها وتوجيهها، لاستخراج القيمة المضافة الكامنة فيها وإطلاقها للحياة، ومطلب ديوي هو دمج المدرسة بوصفها مؤسسة بالحياة الاجتماعية وميادينها المتعددة، وعنده أن التلف الذي أصاب المدرسة هو بسبب قطع الحبل السري للمدرسة عن المجتمع، فالمدرسة في جوهرها هي مجتمع أفراد على ارتباط عضوي بالمجتمع وبالحياة الاجتماعية بتجلياتها المتعددة .

1- المصدر نفسه ، ص 53

2- المصدر نفسه ، 54

إن التلف أو الضياع في التربية – بحسب ديوي – هو نتيجة عجز الطفل عن الانتفاع بما تعلمه في المدرسة وتوظيفه في حياته اليومية، هذه هي عزلة المدرسة عن الحياة كما عاينها ديوي[36]، والسؤال الرئيس عند ديوي، هو كيف يمكن إعادة بناء العلاقة بين المدرسة والحياة بحيث يتمكن الطفل من استثمار العلوم والخبرات والمهارات التي تعلمها وخبرها في المدرسة، كيف يمكن استثمارها وتوظيفها في تفاصيل الحياة اليومية ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال – برأي ديوي– تتلخص في إعادة بناء العلاقة بين المدرسة والمجتمع، بحيث تغدو العلاقة بين المدرسة والمجتمع علاقة ارتباط عضوي، مما يمكن من انفتاح المدرسة على الحياة خارج أسوارها ويحررها من عزلتها، ذلك أنها في صورتها القائمة لا تعدو أن تكون خليطاً من مواد دراسية لا حياة فيها، ومناهج لا رابط بينها ولا تؤدي إلى معنى يفيد الطفل في حياته اليومية[37].

إن النظام التربوي السائد في المدرسة التقليدية لا يلبي مطالب الطفل وميوله واحتياجاته، فالمنهج الدراسي الذي يتمثل بالكتاب بصورة رئيسة، هو القالب الذي ينطوي على المعلومات والمواد الدراسية المختلفة وفق وحدات دراسية منتظمة، هذا المنهج لا يراعي ميول الطفل واحتياجاته في أغلب الأحيان، مما يؤدي إلى نفور الطفل من هذه المواد التي لا يجد فيها أي معنى، ذلك أنها بعيدة عن الحياة، وبمعنى أن الطفل لا يستطيع أن يوظفها في حياته العملية اليومية، حيث تتمثل له هذه المواد بصفة إلزامية قسرية، مما يضطره إلى تعلمها ومراجعتها واستظهارها ليتمكن من النجاح في نهاية العام الدراسي، وبهذا المعنى كتب ديوي قائلاً: "أصبحت عناصر الرسوب والفشل هي الشيء الواضح والأكيد، فالتلميذ ينبغي عليه أن يحارب حرباً مستمرة لا هوادة فيها كل العوامل التي تثبط من همته، والتي توحي إليه دائماً بأنه لم يصل إلى المستوى الذي قال عنه المعلمون أنهم يتوقعون أن يصل إليه"[38].

1- ديوي ، جون ، المدرسة والمجتمع ، مصدر سبق ذكره ، ص 83

2- المصدر نفسه ، ص 83

3- ديوي ، جون وإيفلين ، مدارس المستقبل ، ترجمة : عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،1962، ص 328

إن النظام التعليمي الكلاسيكي يمثل – عند ديوي– سلطة خارجية تفرض هيمنتها على كل من التلميذ والمعلم بآن معاً، فهو مجموعة من القواعد الثابتة والمحددة التي تستعمل وفق خطة مرسومة مسبقاً، بحيث لا تدع مجالاً للاجتهاد أو الابتكار، لا من جانب التلميذ ولا من جانب المعلم، وهكذا فإن نظام التعليم التقليدي يتطلب من التلميذ أن يكافح حتى الرمق الأخير في سبيل الوصول إلى أهداف لا يراها !(1)[39]، فالمدرسة بثوبها التقليدي معزولة عن المجتمع والحياة، ذلك أنها تستقبل الأطفال صباحاً وتعمل على حشو أذهانهم بمعلومات جامدة لا صلة لها بوقائع الحياة، ومن ثم تطلق سراحهم في المساء ليعودوا إلى منازلهم مثقلين بأحمال الكتب والمعلومات التي تلقوها، وهذا مما يؤدي إلى إهمال الذوات الفردية للأطفال وضياعها، وهكذا تتحول المدرسة إلى مكان للقيام بالواجبات المدرسية فحسب، والواجب كما نعلم يتصف بصفتي الإلزام والإكراه، مما يؤدي إلى نفور الأطفال من المدرسة في غالب الأحيان، بسبب غياب الدافع الفردي والاجتماعي عند الأطفال في تحصيل معلومات مجردة لا حياة فيها، مما دفع ديوي للتساؤل، وهو محق في ذلك، ما الذي ينتظره الأطفال من دروس التربية الوطنية والأخلاق طالما أنهم يتلقون هذه الدروس استعداداً لاجتياز الامتحانات ؟؟!(40)

إن سؤال ديوي ههنا هو سؤال استنكاري، ذلك أن هدف ديوي ليس النيل من منظومة القيم الأخلاقية وما يصدر عنها من مفهومات تربوية، إن سؤال ديوي فيما تقدم وغيره من الأسئلة التي طرحها في هذا السياق أسئلة تندرج في حقل الأبستمولوجيا، فالمدرسة في برنامج ديوي التربوي مؤسسة رئيسة من مؤسسات المجتمع المتعددة التي يناط بها بناء الإنسان.

1- ديوي، جون وإيفلين ، مدارس المستقبل ، مصدر سبق ذكره، ص332

2- ديوي ، جون ، المدرسة والمجتمع ، مصدر سبق ذكره ، ص 84

الخاتمة:

تعد التربية عند ديوي مشروعاً مستداماً مادامت الحياة، فالتربية لا تتوقف عند حدود المدرسة الزمانية والمكانية، كما أن التربية عنده لا تعني إعداد الطفل للمستقبل كما تحدر إلينا من أغلب العاملين والمتخصصين في حقل التربية والتعليم وهو ما بات شائعاً عند العامة، فالتربية عند ديوي هدفها الطفل الآن، الطفل في اللحظة الراهنة، التربية عند ديوي تنصب على الطفل بوصفه ابن الحياة في كل لحظة من لحظات نموه وتطوره، موضوع التربية هو الطفل الآن، وليس كما هو شائع إعداد الطفل للمستقبل، "التربية هي الحياة وليس إعداداً للحياة "، ولعل تميز ديوي وانزياحه عن أسلافه ومجايليه في موضوع التربية هو قوله براهنية التربية الآن، فالطفل عند ديوي يتكون وينمو في كل آن في مؤسسات التربية والتنشئة الاجتماعية المتعددة، ومنها المدرسة بوصفها مؤسسة اجتماعية رئيسة تعنى بالطفل، وهدف المدرسة عند ديوي هو تربية وتعلم الطفل وتمكينه من التفاعل مع المجتمع الذي يكتنفه الآن، هذا هو المفهوم المركزي في التربية عند ديوي، والتربية والتعلم عنده، يعني تمكين الطفل من مواجهة مشكلات الحياة والعمل على إيجاد الحلول الممكنة، وهذا يعني أيضاً مما يعنيه أن التربية ليست وقفاً على سن محدد، ومن ثم ليست وقفاً على المرحلة التي يكون فيها الطفل داخل أسوار المدرسة .

استطاع ديوي أن ينهض بأطروحة مهمة في حقل التربية والتعليم، أطروحة تعد قطيعة أبستمولوجية في هذا السياق، فالتربية مع ديوي لم تعد فعلاً يمارسه الكبار على الصغار، ولم يعد هناك وصاية على الأفكار والتعلم، وبمعنى أن التربية عند ديوي، هي الممارسة والفعالية والنشاط اليومي الذي يقوم به الطفل داخل المدرسة وخارجها، وهو يكافح للتغلب على مشكلات الحياة اليومية، متوسلاً كل ما من شأنه أن يسعفه في هذا الكفاح، وغني عن البيان أن هذا الطرح يعد قطيعة أبستمولوجية مع الإرث الكلاسيكي في موضوع التربية، فالطفل عند ديوي هو مركز العملية التربوية والتعليمية

وهو محط الأنظار في تفاعله اليومي مع المدرسة والمجتمع، ولهذا يتعين على الطفل في المدرسة اليوم هو أن يتعلم بالعمل Learning by doing، وهذا هو المفهوم الرئيس عند ديوي في فلسفة التربية، فالطفل في كفاحه اليومي وانشغاله بحل المشكلات التي تعترضه، ينمو وينضج باستمرار، فالتربية عند ديوي، تعني اكتساب الطفل الكفايات المطلوبة، الكفايات المعرفية والعملية، وصرفها في ميادين الحياة المختلفة، ولهذا ذهب ديوي إلى ضرورة أن يتخفف الطفل من عبء الإرث النظري الذي ورثه من الأجيال السابقة، ليتمكن من استعمال وتوظيف جملة المعارف والكفايات والمهارات التي خبرها في المدرسة، لمواجهة المشكلات التي تطرحها عليه الحياة، وبهذا فإن هدف ديوي هو تجسير الهوة بين المدرسة والمجتمع، وإعادة بناء العلاقة بينهما، وذلك بتمكين الطفل من تطبيق ما تعلمه واكتسبه من قيم ومعارف ومهارات في ميادين الحياة اليومية، وعند تمكين الطفل من القيام بذلك فإنه يتمثل القيم الأخلاقية والعملية التي تلقاها في المدرسة ويجد تفسيراً ومعنىً عملياً لها في الحياة.

إن الإصلاح التربوي الذي نادى به ديوي، هو إصلاح اجتماعي بالوقت ذاته، ذلك أن الإصلاح التربوي في جوهره هو إصلاح للفعالية الاجتماعية عند الطفل وتمكينه من الاندماج في المجتمع ومحاولة التغلب على مشكلاته المتجددة، ومشروع الإصلاح التربوي عند ديوي يتعين في التربية الديموقراطية للطفل في المدرسة، وهو المشروع الذي عمل عليه ديوي لسنوات طويلة، وبشر به في أسفاره المتعددة إلى عدد من البلدان الأوربية، وإلى اليابان وتركيا، حيث حاضر في هذا الموضوع في عدد من الجامعات التي زارها، ولقد ترك فكره أثراً كبيراً في المجتمع الأميركي والمجتمعات الأوربية وغيرها، وتجلى ذلك في ظهور العديد من الاتجاهات التربوية الإصلاحية التي استلهمت أفكار وفلسفة ديوي التربوية، وعلى الرغم من من النجاح الكبير الذي أحرزه مشروع ديوي، فإنه لم يسلم من النقد من جانب الفكر المحافظ وأشياعه في العديد من الولايات الأميركية، ولاسيما فيما تعلق بموقف ديوي من الإرث المتعلق بالتاريخ وما يحمله من معارف وقيم

نظرية عديمة الفائدة بحسب ديوي، وهذا مما أجج أصحاب الفكر المحافظ ضده، ومن الأفكار التي طالها النقد، الاهتمام المبالغ بالطفل وميوله ورغباته إلى درجة الخضوع الكامل له، وعدم الصرامة في المدرسة وتراخي النظام التربوي بشكل عام. وأخيراً، يمكن القول إنه على الرغم من كل الانتقادات التي وجهت إلى فلسفة التربية عند ديوي، فإن العديد من أفكار ديوي مازالت تمتلك حضوراً مهماً في ميادين التربية والتعليم، ولاسيما في عالمنا العربي الذي نزعم أن بناه التعليمية وفلسفته التربوية مازالت بعامة بنى قديمة ومحافظة، مما يعني أن أفكار ديوي تعد أفكاراً مهمة ومطلوبة لجهة الشروع ببرامج تربوية اصلاحية، ولا سيما فيما يتعلق بإعادة بناء العلاقة بين المدرسة والمجتمع .

المراجع :

- ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.
- ديوي، جون، التربية والديموقراطية، ترجمة منى غفراوي وزكريا ميخائيل، لجنة التأليف والنشر، القاهرة ، ط1، 1964.
- ديوي، جون، المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم ومحمد ناصر، دار الحياة، بيروت، ط2، 1978.
- ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، ترجمة محمد لبيب النجيحي، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1963.
- ديوي، جون وإيفلين، مدارس المستقبل، ترجمة عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962.
- الجيوشي، فاطمة، فلسفة التربية، جامعة دمشق، دمشق، ط5، 1999 .
- الأهواني، أحمد فؤاد، نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1978.
- الشنيطي، محمد فتحي، المعرفة، دار الثقافة، القاهرة، ط5، 1981.
- عثماني، الميلود، التربية والديموقراطية، المدرسة المغربية، عدد 8/7 ، الرباط،2017
- الرابط الإلكتروني: WWW.almaany.com